الإسلام

دين الإنسانية

تأليف

مولانا محمد علي

ترجمة

السيدة حبيبة شعبان يكن

الناشر : محمد جمال صاحب المكتبة الاهلية في بيروت

رئيس التحرير مجلة "الصادق"

بغداد - العراق

١٥ رمضان ١٣٦٦

الاسلام

دين الانسانية

تأليف

مولانا محمد على

استاذ في العلوم ، وبكالوريوس حقوق

مترجم القرآن الكريم الى الانكليزية

ومؤلف : محمد النبي ، محمد والمسيح ، الخلافة الاولى ، مختصر الحديث ، ديانة الاسلام الخ الخ

مصدّر بمقدمة بقلم : **اللورد هدلي**

نشرته المكتبة الاهلية — في بيروت

الاسلام — دين الانسانية

نقلته الى اللغـة العربيـة

وعلقت عليه بعض الهوامش

السيدة حبيبة شعبان يكن

بيروت ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

تقديم الكتاب

طالعت هذا الكتاب باللغة الانكليزية فرأيت ان الحاجة ماسة لنشره بالعربية لانه يضم بين دفتيه مظهراً عاماً من مظاهر الاسلام كدين انساني ويوضح ان الدين دين الله ، وهو دين واحد في الاولين والآخرين لا تختلف الا صوره ومظاهره ، واما روحه وحقيقة ما طالب به العالمون على السنة الانبياء والمرسلين فهو لا يتغير .

ايمان بالله وحده ، واخلاص له بالعبادة ، ومعاونة الناس بعضهم لبعض في الخير ، وكف اذاهم بعضهم عن بعض ماقدروا . ونعتقد ان دين الاسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الاصول .

فانت ترى ايها القاريء الكريم في هذا الكتاب مع صغر حجمه ، مادة غزيرة تعرف منها حقيقة التعاليم الاسلامية ، ومباديها الاخلاقية ، واركانها الاجتماعية فلا بدع ان عقدنا النية على اخراجه لقراء العربية لما للمؤلف من عظيم المنزلة وسمو الفكر ، وعلو القدر في المباحث الاسلامية

وما القصد من نشره وترجمته سوى خدمة الوطن في هذه الاونة الاخيرة التي نحن باشد الحاجة فيها للتساند والتكاتف جميعاً والدلالة على ان الدين واحد لله ، وان الوطن المفدى للجميع .

الدكتور مصطفى خالدي

كلمة ممهدة

على الترجمة العربية

ان الغاية من نقل هذا الكتاب الصغير الى اللغة العربية تعريف القاريء العربي بناحية من جهود غير العربي في النظر الى الاسلام . والكتاب في اصله الانكليزي قد قصد به مؤلفه بسط وجهة نظر الاسلام في « الدين » للشعوب البريطانية — اي الشعوب التي تتكلم اللغة الانكليزية ، وقد قصد به ايضاً غير البريطانيين من الذين يحسنون اللغة الانكليزية . فمن اجل ذلك نحا المؤلف في هذا الكتاب ناحية الكلام على اركان الايمان في الاسلام وعلى اركان الدين الاساسية ، ذلك لان ثمة اقواماً كثيرين يفهمون الاسلام فهماً خاطئاً صوره لهم اعداء الاسلام واساطين الاستعمار ، فاصبح الغربيون عادة ينظرون الى الاسلام نظرة لاتتفق مع الحق في شيء .

ويظهر بجلاء ان للمؤلف غاية ثانية : ان الاسلام دين عالمي بمعنى انه لم يأت للعرب فقط بل جاء لهم ولغيرهم ايضاً . وهكذا اراد المؤلف ان يكون كتابه صوتاً جديداً في تبيان محاسن الاسلام وبرهاناً على ان الاسلام ليس دين قوم بعينهم ، ولا مذهب طائفة بعينها ، ولكن فيه خصائص شاملة تجعله يصلح لكل قوم في كل عصر ومصر .

والمؤلف حريص على ان ينفذ القاريء معه الى روح الاسلام الحقيقية ، تلك الروح التي تجعل الغاية الاساسية من الاسلام ومن كل دين العمل الصالح

والخير الاجتماعي لا شكل العبادات ، ولقد اكد المؤلف في كل صفحة من صفحات الكتاب هذه الناحية مستشهداً على ما يقول بآيات القرآن الكريم في الاكثر ، او باحاديث نبوية .

وتمتاز الترجمة العربية بامرين احدهما المحافظة على روح الاصل مع المحافظة على سياق الاسلوب ، لان الاسلوب هو الوسيلة الوحيدة الى الايضاح والاقناع ، وثاني الامرين ان المترجمة قد ارادت ان تعلق على بعض اقوال المؤلف بهوامش تزيد تلك الاقوال وضوحاً او تبسطاً وشرحاً .

وخليق بنا جميعاً ان نطلع على مايعرفه الغرب وغير المسلمين عن الاسلام او مايكتب لغير المسلمين عن الاسلام ، فان في ذلك نفوذاً الى عقلية الغرب وسبيلاً الى معالجة الاصلاح ـ حينما نجد انفسنا محتاجين اليه ـ معالجة عملية . ولا حاجة الى القول بأن واضع هذا الكتاب علم من اعلام الاسلام في الهند وان المرحوم اللورد هدلي صاحب المقدمة عليه كان زعيم الحركة الاسلامية في انكلترة

ع . ف

الفهرست

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد تلوت بسرور عظيم موجز التعاليم الاسلامية التي كتبها مولاي محمد علي ، واني لشديد الاعجاب بالمقدرة التي اظهرها في تلخيص احكام الشريعة الاسلامية بصفحات قلائل . ان السهولة والرغبة في العمل هما دائماً رائدا الشخصيات التي تبحث عن الحقيقة .

ولكن لا يزال ثمة حاجة ظاهرة الى عرض موجز للاسلام ، اذ على الرغم من تقدم التفكير العاقل فيما يتعلق بالموضوعات الدينية ، فان هنالك قدراً محزناً من الجهل لا يزال يسود هذه البلاد (انكلترة) فيما يتعلق بالدين الاسلامي .

وهذا ناشيء الى حد كبير من التشويه الذي يقوم به اولئك الذين يعرفون الاسلام حق المعرفة ولكنهم يضللون العقل الغربي قصداً . من هذه الضلالات التي نشأت من هذا التشويه ما عند بعضهم من الوهم من ان المسلمين يعبدون محمداً [1] ، وان تعدد

---

(١) مع ان الآيات متضافرة بأن الرسول « عليه السلام » بشر مثلنا : « قل انما انا بشر مثلكم » (الكهف : ...) . « لقد جاءكم رسول من انفسكم » (٩ : ١٢٨) . « وما محمد الا رسول » (آل عمران : ١٤٤)

الزوجات جزء من الديانة الاسلامية لا يتجزأ [1] ، وان النساء لا ارواح لهن [2] . وقد سمعت منذ امد قصير بحادثة جرت بين اثنين ، يدل مظهرهما على انهما ذوَي ثقافة عالية ، تناولا في حديثهما الاتراك والحرب الحاضرة ، فقال احدهما لصاحبه بلهجة عادية : حسناً وما ترجون من قوم وثنيين يعبدون محمداً ؟ ومع كل

(١) قال ابن جرير الطبري : — ان قريشاً كان الرجل يتزوج منهم العشر من النساء والاكثر والاقل . فجاء القرآن بتقليل العدد والعدل في النساء فقال : « فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » (النساء : ٣)

قال الامام محمد عبده ، رحمه الله :

ان خفتم الا تعدلوا بين الزوجات او الزوجتين فعليكم ان تلتزموا واحدة فقط . والخوف من عدم العدل يصدق بالظن والشك فيه ، بل يصدق بتوهمه ايضاً . فالذي يباح له ان يتزوج ثانية او اكثر هو الذي يثق من نفسه بالعدل بحيث لا يتردد فيه او يظن ذلك ، ويكون التردد فيه طفيفاً . وقال : من تأمل الآية الكريمة : « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » والآية الاخرى من سورة النساء : ١٢٩ « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » علم ان اباحة تعدد الزوجات في الاسلام امر مضيق فيه اشد التضييق كانه ضرورة من الضرورات التي تباح لمحتاجها بشرط الثقة باقامة العدل والامن من الجور .

(٢) كبر مقتاً عند الله ان يقال هذا القول وقد وردت الآية الكريمة « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً ونساء » (النساء : ١) . وورد في الآية الكريمة : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » (٧ : ١٨٩) . قال الرازي : المراد خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها انساناً يساويه بالانسانية . ووردت آيات اخرى منها : « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً » (١٦ : ١٧) « فاطر السماوات والارض جعل لكم من انفسكم ازواجاً » (٤٢ : ١١) . وكل هذه الآيات تفيد ان المرأة مخلوقة كالرجل . خلقت من جنسه بروح وعقل خلافاً لما توهمه المضللون .

ما في هذا القول من الغرابة والبعد عن حد التصور ، فانني واثق من ان هناك فئةً في انكلترة من ذوي المكانة والاعتبار ومن الذين نالوا حظًا وافراً من العلم يعتقدون بالفعل اننا نعبد محمداً ، واننا مجبرون على اتخاذ زوجات عديدة ، وانه ليس لنسائنا ارواح ، فهن لذلك لا يدخلن الفردوس [1] . كل هذه الآراء خطأ محض . اننا نعبد الله الواحد الاحد . ان قوله تعالى : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » جزء من صلاة كل مسلم . ونحن لذلك لا نفرق ايضاً

(١) لا نعلم من اين اتت هذه الفرية فقد جاء في القرآن الكريم : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار » (٩ : ٧٢) . « لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى » . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون » . . .

فيفهم من هذه الآيات ان المرأة والرجل متساويان عند الله تعالى في الجزاء متى تساويا في العمل ، فلا تفاضل بين الرجل والمرأة الا بالاعمال . وقد جاء في الحديث الشريف : « النساء شقائق الرجال » اي مثلهم في الطباع والاخلاق .

وجميع الامم كانت تهضم حق المرأة قبل الاسلام وتعدها كالبهيمة المسخرة لمصلحة الرجل . وبعض الناس عد المرأة غير اهل للتكاليف الدينية . وزعموا انها ليس لها روح خالدة . فمن علم هذا ، قدّر الاصلاح الاسلامي وتبين له ان الاسلام كرم المرأة ، ولكن التقصير وقع اخيراً بين المسلمين في تعليم النساء وتربيتهن . وقد جاء في الآية الكريمة : « يا ايها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرهاً » (١٨ : ٢٣) . منعاً لاستمرار سنة الجاهلية في هضم حقوق النساء حيث كانت المرأة تعتبر ميراثاً كالاموال والارض يتصرف بها الرجل كما يشاء . فالجنة خلقت لمن يعمل صالحاً من الرجال والنساء . والمرأة غير محرومة من الفردوس . والاسلام أعلى من شأن المرأة ولم يهضم لها حقاً كما سيجيء .

بين الانبياء [1] الذين اختارهم الله القدير في جميع ادوار التاريخ العالمي. نحن نشهد ان « لا اله الا الله وان محمداً نبيه وخاتم رسله ».

اما تعدد الزوجات فقد كان منتشراً في الجزيرة العربية قبل بعثة محمد . فلما جاء محمد نظم الزواج وقيد الرجال فيما يجوز لهم اتخاذه من النسوة . ثم ابطل وأد البنات مرة واحدة ، وقد كان الوأد عادة لهم قبل الاسلام . وفي ايامنا هذه لاتجد غير نفر قلائل يتزوجون بأكثر من واحدة . ثم ان مركز المرأة في العالم الاسلامي احسن كثيراً من مركزها في العالم المسيحي .

واني لارجو ان يتاح لهذه العجالة ان تنتشر ، كما انني اشعر ان ما على صفحاتها من اقناع سيحمل النور والاطمئنان الى اولئك الذين لم يعرفوا بعد الروح الصحيح في الاسلام ، اولئك الذين لا يزالون يعمهون في ضلالهم الذي يوقعهم فيه إما حاجتهم الى المعلومات الوثيقة ، او الى اولئك الذين يحرفون الدين الشقيق (النصرانية) تحريفاً باطلاً .

اللورد هدلي

---

(١) جاء في الكتاب الكريم : « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون » .

فالمراد ان لاتكون الدعوة الى شيء خاص ليفصل بين المسلم وبين سائر اهل الاديان السماوية بل ينظر الى جهة الجمع والاتفاق والدعوة الى اصل الدين وروحه الذي لاخلاف فيه ولا نزاع وهو التسليم بنبوة جميع الانبياء والمرسلين مع الاسلام لرب العالمين لا نعبد الا الله ولا نفرق بين احد من رسل الله .

فالمسلم يؤمن بانبياء الله اجمعين وان ما نزل عليهم هو دين الله الحق وانه كان وحياً من الله فلا نكذب احداً منهم بما ادعاه ويؤمن بالجميع اجمالا .

الاسلام دين الانسانية

الاسلام هو الاسم الذي عُرف به الدين الذي بَشَّر به النبي الكريم محمد في الجزيرة العربية منذ ثلاثة عشر قرناً ، وهو آخر الاديان التي ظهرت في العالم كله . هذا الدين معروفٌ في الغرب باسم « المحمدية » نسبة الى اسم النبي محمد ، كالمسيحية والبوذية مثلاً فانهما نسبة الى المسيح وبوذا . ولكن هذه التسمية غير معروفة لدى المسلمين انفسهم ، ولا وردت في القرآن ، كتاب المسلمين الكريم[1] ثم ان الاسلام واسع في مداركه سعة الانسانية نفسها . هذا الدين لم ينشأ من تعاليم النبي الكريم محمد ، بل لقد كان دين الانبياء الذين جاءوا من قبل ، لقد كان الاسلام دين آدم ونوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى[2] فهو في الحقيقة دين

(١) والذي ورد في القرآن هو اسم الاسلام جاء في سورة المائدة : « ورضيت لكم الاسلام ديناً » ولفظ الاسلام في عرفنا اليوم لقب يطلق على طوائف من الناس لهم ميزات دينية وعادية تميزهم عن سائر الطوائف الذين يلقبون بالقاب دينية اخرى .

(٢) آمن الرسولُ بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين احد من رسله ... « قرآن كريم » .

كل رسل الله الذين ظهروا في العالم ، لا بل ان الاسلام دين كل طفل يولد ، كما ورد في الحديث عنه عليه السلام ، ثم ان محمداً عليه السلام — اذا تحرينا الدقة — لم يكن مبتدع هذا الدين بل كان آخر مُظهر لهذا النظام الالهي .

اما القرآن فيذكر ان الاسلام هو الدين الطبيعي للانسان : « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم . . . » (٣٠ : ٣٠) وبما ان الرسل كما ورد في القرآن قد بعثوا في امم مختلفة وفي عصور شتى ، وبما ان دين كل رسول لم يكن في صفائه الاول شيئاً سوى الاسلام ، فان مجال دينهم هذا — في المعنى المقصود من الكلمة — كان قديماً قدم الانسانية وواسعاً كسعتها نفسها ، ولقد كانت المبادىء الاساسية فيها دائماً واحدة ، بينما كانت الأعراض (المظاهر والصفات) تختلف باختلاف حاجات الانسانية (في اعصرها المختلفة) . اما آخر وجه للاسلام فكان الذي ظهر مع بعثة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم .

١ ـ معنى الاسم

ان كلمة « اسلام » لم يطلقها الذين دخلوا في الدين ، كما اتفق لاصحاب الديانات الاخرى . فالتسمية هذه قد صرح بها القرآن الكريم فقال : « ورضيت لكم الاسلام ديناً » (٥ : ٣) وقال في مكان آخر : « ان الدين عند الله الاسلام » . ثم ان « الاسلام » كلمة ذو معنى ، وهذه الكلمة تدل في الحقيقة على جوهر النظام الديني المعروف بهذا الاسم [1] .

---

(١) اوجز المؤلف القصد من كلمة « الاسلام » الا اننا تتمة للبحث رأينا ان نشير الى معنى الاسلام وما ورد تحت هذه الكلمة من المعاني تكملة للفائدة :

الاسلام هو الاسم الذي يطلقه المسلمون في كل قطر على عقيدتهم . وقد وردت هذه الكلمة ثماني مرات في القرآن كقوله تعالى « ان الدين عند الله الاسلام » (آل عمران : ١٧) وقوله تعالى « اليوم اكملت لكم دينكم ورضيت لكم الاسلام ديناً » (المائدة : ٥) وقوله تعالى « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره الاسلام » (الانعام : ١٢٥) .

وقد ذكر الفخر الرازي المتوفي سنة ٦٠٦ هـ . في تفسيره ان الاسلام ثلاثة معاني :

« اولا » الدخول في الاسلام اي الانقياد والمتابعة محتجاً بقوله تعالى : « ولا تقولوا لمن القى اليكم السلم لست مؤمناً » (النساء ٤ : ٩٤) اي لمن صار منقاداً لكم وتابعاً لكم

« ثانياً » من اسلم اي دخل في السلم اي السلامة .

« ثالثاً » قال ابن الانباري المتوفي سنة ٣٢٨ هـ المسلم معناه المخلص لله .

ويقول المستشرق غولد زيهر : ان الاسلام يأتي بمعنى انقياد المؤمن لله . وهي تعني —

ان المعنى الاول للاسلام هو « السلام » وفكرة « السلام » هي الفكرة السائدة في الاسلام . ان المسلم حسب تعريف القرآن الكريم هو الذي عقد « سلاماً » مع الله ومع الناس : مع الخالق ومع المخلوقين . فالسلام مع الله يتم بالطاعة التامة لارادته اذ هو ينبوع الصفاء والخير ، والسلام مع الانسان يتضمن صنع الخير الى اخيه الانسان ، فان هاتين الصورتين هما اللتان اشار اليهما

— استسلام الانسان للقدرة الالهية متبرئاً من كل حول له وقوة (عقيدة الاسلام ص ٢٠) وجاراه على ذلك بقية المستشرقين كأرنولد وبابنجر .

اما سيد امير علي في كتابه « روح الاسلام » فلا يرى في استعمال كلمة « اسلام » لغة او شرعاً ما يدل على معنى الانقياد والخضوع المتضمن لمعنى الجبر . ويقرر ان المعنى الشرعي للاسلام هو الكد في تحري الرشد والتماس الفلاح بتزكية النفس كما يؤخذ من الآيات (١٤ : س : ٧٢) . (الجن ٧ : ١٠) . (س ٩١ الشمس) وذلك يتضمن معنى الطاعة الارادية ظاهراً وباطناً . فالمعاني الحقيقية للاسلام تتضمن :

(اولا) معنى الخلوص من الشوائب ظاهرة او باطنة (آ. ٣٥ س ٤٧) (آ ٩٨٠ س ٢٦) .
(ثانياً) معنى الصلح والامان (آ. ٣٥ س ٤٧) . (آ. ٦١ س ٨)
(ثالثاً) معنى الطاعة والانقياد (آ. ٣٦ س ٣٧)

ويرى اللغويون ان المعنى الشرعي للفظة « الاسلام » هو التوحيد واخلاص الضمير لله (الزمخشري في الكشاف) عند تفسير قوله تعالى: « ان الدين عند الله الاسلام » . وابن دريد جزء واحد ص ٣٢ . وفي الآية ٣ س ٥ المائدة « اليوم اكملت لكم دينكم ... الى آخره . مايدل على ان الدين الذي هو الاسلام هو النص على قواعد العقائد والوقوف على احوال الشرائع التي كملت بالقرآن . اما الاحكام العملية فهي تختلف باختلاف الانبياء والامم

ويستخلص مما تقدم ان الدين في عرف القرآن هو الايمان بالاصول الدينية التي هي حقائق خالدة لايدخلها النسخ ولا تختلف فيها الانبياء . وان الاسلام هو هذا الدين .

القرآن الكريم بايجاز ولكن بحسن تعبير في الآية الكريمة : « بلى : من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ : ١١٢) . وبهذا فقط تحصل النجاة في الآخرة كما ارادها القرآن الكريم .

وبما ان المسلم في سلام شامل فانه يتمتع بذلك في عقله وفي رضا نفسه ، « ويكون قلبه مطمئناً بالايمان » (١٠٦:١٦) ثم إن « السلام » تحية المسلم للمسلم ، و « السلام » سيكون ايضاً تحيـــة اهل الفردوس : « وتحيتهم فيها سلام » (١٠ : ١٠) . إجل ، ان المسلمين لن يسمعوا في الجنة التي وصفها الله لعباده كلمةً ما الاّ « سلاماً ، سلاماً » فقد جاء في الكتاب العزيز : « لايسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ، الا قيلاً : سلاماً سلاماً » (٥٦:٢٥ـ٢٦) وكذلك « السلام» اسم خالق السلام اسم من اسماء الله الحسنى : « . . . هو الملك القدوس السلام المؤمن . . . » (٥٩ : ٢٣) على ماذكر الكتاب الكريم . وما الغاية التي يهدف اليها الاسلام سوى السكنى في دار سلام ، كما قال تعالى : « والله يدعو الى دار السلام . . . (١٠ : ٢٥) .

وهكذا كان « السلام» جوهر الاسلام ، فهو الاصل الذى بني عليه والثمرة التي يؤتيها ، فالاسلام اذن دين السلام .

٢ - الصفات المميزة للاسلام .

ان الميزة العظمى في الاسلام هي انه يطالب الى الداخلين فيه ان يعتقدوا ان جميع الاديان الكبرى في العالم والتي سادت من قبله كانت بوحي من الله . وهكذا يكون الاسلام قد وضع أساس السلام والوئام بين جميع الاديان في العالم . ثم ان لجميع الاديان — كما يقول القرآن الكريم — اصلاً في وحي سماوي هو مبدأ لها . فالبعثة الاسلامية العظمى لم تكن لتدعو الى هذه الحقيقة فقط ، وهي التي لم يُدع اليها من قبل ذلك لتفرق شعوب الارض وانقطاع الاسباب بينها ، بل ليصحح ايضاً تلك الاخطاء التي وجدت سبيلها إلى تلك الاديان المختلفة من قبل ، وليميز الحق من الباطل ، وليدع الى الحقائق التي لم يدع اليها من قبل ايضاً ، لاحوال خاصة تتعلق بالبيئة التي انتشرت فيها تلك الاديان السابقة على الاسلام ، وخصوصاً في مراحل الاجتماع الاولى .

ولعل اهم من ذلك كله حرص الاسلام على ان يجمع في كتاب واحد جميع الحقائق التي تفرقت في كتب الوحي المختلفة مما اسبغه الله على جميع الشعوب ، وذلك لهدي البشر ، ثم يأتي في

المقام الاخير تلبية الحاجات الروحية والخلقية لانسانية دائمة التقدم . من اجل ذلك كله قال الله تعالى (٩٨ : ٢) : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة » . وقد كانت النتيجة الطبيعية ان الكتاب الكريم قد اعلن للمسلمين قوله تعالى (٥ : ٣) : « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

فالاسلام اذن يدعونا الى ان نعتقد بالحقيقة الكاملة التي اوحي بها الى كل نبي من انبياء الشعوب الماضية . تلك العقيدة السمحة ، التي جاء بها محمد رسول الله ، تؤلف ميزة من اعظم ميزات الايمان في الاسلام .

٣ - الاسلام دين تاريخي

لقد وفيت الكلام عن مقام الاسلام بين اديان العالم وعن مقام القرآن الكريم بين الكتب السماوية ، ولكني اود ان الفت النظر الى ميزة ثانية للاسلام على سبيل التوطئة . الاسلام دين تاريخي لاشك في ذلك ، ثم ان صاحب دعوته شخصية تاريخية[1] ايضاً . ذلك حقيقة لايسع احداً ، حتى الخصم الهدّام الا ان يقرّ بها . ثم ان كل حادثة في حياة الرسول الكريم يمكن ان تؤيد بالتاريخ ، وكذلك القرآن الكريم الذي هو مصدر الشرائع الروحية والاجتماعية في الاسلام[2] ، هو على ما لاحظ بوسورث سميث فعلاً « كتاب نسيج وحده في مصدره وفي سلامته ... حتى ما يستطيع احد ان يلقي شيئاً من الشك على صحة روايته ، حتى ان

(١) قال تولستوي : ومما لا ريب فيه ان النبي محمداً من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ويكفيه فخراً انه هدى امة برمتها الى نور الحق وجعلها تجنح للسكينة والسلام وتفضل عيش الزهد ومنعها عن سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح لها طريق الرقي والمدنية وهو عمل عظيم لا يقوم به الا شخص اوتي قوة ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والاكرام .

وقال سديو : ان محمداً عليه السلام قد رفع اعلام التمدن .

(٢) قال وشنطون أيرفنج : القرآن قوانين سنية .

وقال توماس كارليل : القرآن لا ريب فيه وهو الذي نتجت عنه الفضائل على اختلافها ، فهو الكتاب الذي يقال عنه وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

السير وليم ميور[1] يعترف بقوله : « ليس ثمة على الارجح كتاباً آخر في العالم قد بقي اثنى عشر قرناً نقياً من كل شائبة كالقرآن ، ثم هو يزيد مع فون هامّر فيقول : « اننا نعتقد في القرآن انه اليوم بكل تأكيد كما نطق به محمد ، مثلما يعتقد المسلمون انه كلام الله . فالمسلم اذ يملك كتاباً صدر عن وحي الهي ثم بقي سليماً مصوناً في خلال العصور ليهديه الى خيره الاجتماعي والخلقي ، واذ يقتدي بنبي عظيم نبيل كمحمد الذي نجد في اختباره المتنوع في الحياة احسن قواعد السلوك في جميع احوال الحياة الانسانية[2] ، هذا المسلم حقيق انه لم يردّ حقيقة اوحاها الله تعالى الى شعب من الشعوب . ولا انكر قيمة خبر وقع عليه في حياة رجل خيّر . فالمسلم اذن لايعتقد فقط بالوحي الالهي كله فحسب ، ولا هو يتقبل فقط ماجاء به هداة جميع الشعوب ، ولكنه يتبع ايضاً الحقائق الخالدة التي تضمنها الوحي ويقتدى بالرجال الطيبين في كل خير عملوه في حياتهم .

---

(١) السير ولم ميور (١٨١٩ — ١٩٠٥ م) من علماء العربية والتاريخ الاسلامي ، اسكتلندي الأصل ، تقلب في مناصب عالية في حكومة الهند ، ثم اصبح من سنة ١٨٨٥ الى سنة ١٩٠٣ رئيساً لجامعة ادنبره [في اسكتلنده] . له من الكتب : حياة محمد — اخبار الخلافة الاولى — الخلافة ، نشؤها وانحطاطها وسقوطها . وهو معروف ككثيرين امثاله بالتحامل على العرب والمسلمين ، مع انه ملم بمصادر الاسلام وتاريخ الاسلام .

(٢) قال جيبون : ان الشريعة الاسلامية المحمدية تشمل الناس جميعاً في احكامها من اعظم ملك الى اقل صعلوك فهي شريعة حيكت بأحكم واعلم منوال شرعي لا يوجد مثله قط في العالمين .

٤ - المبادئ الاساسية للاسلام

برزت المبادىء الاساسية للاسلام في مطالع القرآن الكريم في السورة التي تبدأ بقوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . اولئك على هدىً من ربهم واولئك هم المفلحون » (٢ : ٢-٤) هذه الآيات تجمل المبادىء الجوهرية التي يجب على من يؤمن بالقرآن ان يسلم بها . فلدينا هنا ثلاث قضايا مهمة في الاعتقاد ، وقضيتان عمليتان ، او ثلاث قضايا نظرية وقضيتان عمليتان . وقبل ان اناقش هذه القضايا واحدةً واحدةً ارى من الضروري ان اشير ، كما تدل هذه الآيات ، الى ان « الايمان » وَحدَهُ في الاسلام لاقيمة له ما لم يقترن بالعمل [١] من اجل ذلك نرى ان قوله تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات » قول يرد في القرآن الكريم وروداً لا حصر له في وصف الصالحين من الناس . ان الايمان الصحيح هو البذرة الصالحة التي لا يمكن ان تنمو لتصبح شجرة طيبة الا اذا تناولت

(١) قد قرن الحق جل وعلا الايمان بالعمل في نحو ثلاثمائة آية من القرآن الكريم ، وليس بعد هذا مذهب في التحضيض على وجوب العمل ، وعدم الاكتفاء من الدين او العلم بالكلام .

غذاءها الضروري من التربة التي غرست فيها . ذلك الغذاء في الإيمان تقدمه الاعمال الصالحة [1]

وهنالك نقطة اخرى يجب ان نذكرها دائماً كلما ذكرنا اركان الاسلام الخمسة المذكورة في الآية الآنفة الذكر ، وذلك ان هذه الاركان قد قبلها الجنس الانساني كله ولكن في اشكال مختلفة . ان اركان الاسلام الخمسة التي سبق لي ان ذكرتها هي : (١) الايمان بالله العظيم الذي لاتدركه الابصار ، (٢) الايمان بان الوحي من الله ، (٣) الايمان بالحياة الاخرى او باليوم الآخر ثم هنالك من الناحية العملية ، (٤) الصلاة لله ، وهي النبع الذي تتدفق منه محبة الله ، ثم (٥) الاحسان باوسع معانيه ، وهو قيام الانسان بواجبه نحو الله ونحو اخيه الانسان .

ان هذه المبادئ الخمسة على انها مبادىء ايمان وعمل قد اقرتها جميع امم الارض ، وهي المبادىء العامة التي بنيت عليها جميع الاديان . وفي الحق ان هذه المبادىء الخمسة الاساسية للاسلام مغروزة في الطبيعة البشرية .

وها انا اتناول هذه المبادىء واحدة واحدة كما فصلها القرآن الكريم .

---

(١) « وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى » قرآن كريم .

٥ ـ ادراك الله بالعقل في الاسلام

من اركان الايمان الثلاثة الاساسية (والنظرية) الايمان بالله، وهو اولهـا . ان الايمان بقوة فوق قوى البشر تعود الى اقدم العصور التي يستطيع التاريخ ان يحملنا اليها ، ولـكن الشعوب المختلفة في العصور المختلفة والبلدان المختلفة كان لها انواع مختلفة من الادراك للوجود الالهي . اما الاسلام فانه يدعو الى الله الذي ليس كمثله شيء من المعبودات القبلية والآلهة المختصة بشعب شعب . ان الله في الاسلام ليس آله امة مخصوصة من الامم يخصها وحدها دون سواها بنعمة ، ولـكنه متصف بما وصف به نفسه في فاتحة القرآن الكريم بانه « رب العالمين » (١ : ١) ، وهكذا بينما هو يبرز في اسمى انواع الادراك العقلي الوجود الالهي تراه يوسع دائرة الاخوة بين البشر حتى تضم جميع شعوب الارض فيتسع افق البشر ويزيد تراحمهم .

ومن جميع الاسماء الحسنى التي وردت في القرآن الكريم نجد ان صفة الرحمة تحتل المكان الاول ، فان كل سورة من سور القرآن الكريم تبدأ باسم الله الرحمن الرحيم ، ان اسم الله تعالى « الرحمن الرحيم » لايمكن ان يحملا لغير القارىء العربي (اذا نقلا

الى لغة اجنبيـــة) الا معنى ناقصاً لما في هذين الاسمين من الدلالة الواسعة من معاني الحب والرحمة الالهيين على ما اشار اليهما القرآن الكريم اذ قال : « ورحمتي وسعت كل شيء » (٧ : ١٥٦) وهكذا فكون الرسول الذي دعا الى هذا الادراك العقلي الوجود الآلهي يد وصف في القرآن الكريم بحق انه «رحمة للعالمين» (٢١:١٠٧) [(١)]

ثم ان « الله خالق كل شيء » وان جحود قوة الخلق فيه تقضي على كل ما في الوجود الالهي من ادراك سامٍ رفيع . واليك الان شيئاً من اسماء الله الحسنى التي تدل على صفاته : « هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبـــار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق الباريء المصور له الاسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم » (٥٩ : ٢٢ ـ ٢٤) . وهو الله السميع البصير اللطيف الكريم الحليم الغفور المجيب النافع الضار الخبير . وهنالك اسماء حسنى كثيرة تخلع على ادراك العقل لله في الاسلام سمواً ، تجده في القرآن الكريم ولا تجده في غيره من الكتب السماوية .

---

(١) لامندوحة عن ان نثبت هذا المقطع على هذا الوجه وان خالفنا اصول النقل قليلا ، ذلك لان الاصل الانكليزي كتب ليوضع بين يدي الانكليز ، اما هذه الترجمة فالمقصود بها العرب انفسهم ، ولذلك تصرفنا بالترجمة قليلا .

٦ - وحدانية الله

ان وحدانية الله هي موضوع القرآن الكريم [١] والقرآن الكريم يشير دائماً الى نواميس الطبيعة والى الفطرة الانسانية والى تعاليم الانبياء الماضين على انها كلها تدل على وحدانية الباري تعالى . اعتبر خلق هذه الاجرام السماوية التي لا تعد ولا تحصى : الا تراها خاضعة مع كل ما يبدو بينها من مظاهر الاختلاف لناموس واحد ؟ فكر في ما تراه في الارض نفسها من عوالمها العضوية وغير العضوية ، بنباتها وحيوانها ، بارضها وبحارها وانهارها وجبالها الشاهقة . الا ترى وَحدَةً بين هذه المتباينات ؟

---

(١) جاء في « الاسلام على مفترق الطرق ص ١٤ ما ترجمته : — الاسلام يرشد الانسان الى ان الحياة في اساسها وحدة فحسب ، لانها تنبثق من الوحدانية الالهية . ولكنه يدل الى الطريقة العملية التي يستطيع بها كل فرد — في نطاق حياته الدنيوية — ان يعيد وحدة الفكر والعمل في وجوده ووعيه كليهما . وللوصول الى هذا الهدف السامي في الحياة كان الانسان في الاسلام غير مجبر على ان يرفض الدنيا ، وليس ثمة حاجة الى تقشف يفتح به الانسان باباً سرياً الى التطهر الروحي ، وليس ثمة اكراه لحمل العقل على ان يؤمن بعقائد غير معقولة حتى يستطيع النجاة في الآخرة . فالاسلام ليس عقيدة صوفية ، ولا هو فلسفة ، ولكنه نهج من الحياة حسب القوانين الطبيعية التي سنها الله لخلقه ، وما عمله سوى التوفيق بين الوجهتين الروحية والماديه في الحياة الانسانية . « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

تأمل طبيعة البشر انفسهم كيف تختلف الوانهم والسنتهم ، اليسوا على الرغم من كل هذه الفروق بشرية واحدة ؟ ارجع البصر في هذا التبديل المستمر لكل ما في هذا العالم من غير ان يتوقف لحظة واحدة ، الا ترى بجلاء ان ثمة قانوناً واحداً يشمل هذا التبديل ؟ فاذا كنت تلاحظ هذا التناسق في هذه الطبيعة المتباينة المظاهر، الا ترى فيها دليلاً واضحا على وحدانية الخالق ؟

ثم انظر الى تلك القرينة التي لا جدال فيها في الطبيعة الانسانية : كيف انها ، وان اعتقدت بتعدد الآلهة ، تتبين وحدة في هذا التعدد نفسه ، وهكذا تشهد بوحدانية الله . ثم قلّب ايضاً صفحات الكتب السماوية في الاديان المختلفة وابحث عن تعاليم القادة الروحيين العظام لجميع الامم تجد ان ذلك كله يشهد بوحدانية الوجود الالهي . وبالايجاز فان نواميس الطبيعة وفطرة الانسان وشهادة الرجال الاخيار في جميع العصور تعلن بصوت واحد ان الله واحد ، وذلك هو الركن الاساسي في التعاليم الروحية في الاسلام .

٧ - الوحي الالهي

والمعتقَدُ الاساسي الثاني للايمان في الدين الاسلامي هو الاعتقاد بالوحي الالهي [1] ، لا الاعتقاد فقط بصحة كلام الله الموحى به في القرآن الكريم ، بل الاعتقاد بصحة الوحي الاسلامي في جميع العصور والى جميع امم الارض . ان الوحي الالهي هو الاساس الذي تقوم عليه جميع الاديان السماوية ، وان كان المبدأ المتفق عليه في ذلك خاضعاً لحواجز معينة

ان أدياناً معينة تعتقد أن الوحي قد مُنح للبشر مرة واحدة ، بينما غيرها تعتقد ان الوحي خاص بشعب خاص . ثم هنالك أديان

(١) قال هنري دى كاستري : — واما مسألة الوحي بالقرآن فهي أكثر اشكالاً واكبر تعقيداً لان الباحثين لم يهتدوا الى حلها حلاً مرضياً والعقل يحار كيف يتأتى ان تصدر تلك الآيات عن رجل امي . وقد اعترف الشرق قاطبة بانها آيات يعجز فكر بني الانسان عن الاتيان بمثلها لفظاً ومعنى آيات لما سمعها « عقبة بن ربيعة » حار في جمالها وكفى رفيع عبارتها لاقناع « عمر بن الخطاب » فآمن برب قائلها وفاضت اعين نجاشي الحبشة بالدموع لما تلا عليه « جعفر بن ابي طالب » سورة « زكريا » وما جاء في ولادة « يحي » .

— ان القرآن يقول عن النبي محمد انه آخر الانبياء ثابت مع هذه النظرية ، لان صحة الكشف الى غير الانبياء مسلم به (حاشية للمؤلف) .

اخر نعتقد أن الوحي قد توقف بعد زمن ما . وبانتشار الاسلام تسربت آراء متباينة فيما يتعلق بادراك الوحي الالهي كالاراء المتباينة المتعلقة بالوجود الالهي . ان القرآن الكريم لا يعترف بحاجز ما على الوحي الالهي ، ولا فيما يتعلق بزمن ما او بقومية الشخص الذي يمكن أن يختصه الله بالوحي ، وهو ينظر الى جميع الشعوب على أنها قد تناولت الوحي في زمن ما من الازمان ، ويعلن ان أبواب الوحي مازالت مفتحة الآن وفي المستقبل كما كانت مفتحة في الماضي ، ولم يكن بامكان شعب من الشعوب أن يبلغ الى الاتصال بالله عن غير طريق الوحي من الله . وهكذا كان من الضروري ان يهب الله القدير الذي هو رب العالمين والذي وهبهم حاجاتهم الطبيعية أن يسبغ عليهم ايضاً نعمه الروحية . وفي هذه الحال ايضاً نجد الاسلام الذي شارك الاديان الاخر في الاعتقاد بالوحي الالهي قد رفض الاعتراف بوجود حاجز فيما يتعلق بمكان الوحي أو زمانه .

وهنالك ناحية ثانية للعقيدة الاسلامية فيما يتعلق بالوحي الالهي ، تختلف مما تراه الاديان الاخرى في العالم ، انه يرفض تجسد الوجود الالهي . أما ان غاية الاديان القصوى فهي بلوغ الانسان الى الله ، وهذا شيء قد اجمعت عليه الاديان . وأما ما

يذهب اليه القرآن الكريم فهو ان ذلك لا يتم بان يتخذ الله شكلاً انسانياً كما يتخيل القائلون بالتجسد ، بل بأن يسمو الانسان بالتدريج نحو الله من طريق الرقي الروحي ومن طريق تطهير الحياة الانسانية من الرغبات الشهوانية والبواعث الدنيا . ان الذي يجلو وجه الله على العالم ليس الوجود الالهي المتشبه بالانسان، بل الوجود الانساني الذي استطاع صاحبه عن طريق شخصيته هو ان يفنى في نار المحبة الالهية. وحينئذ يكون قدوة يهتدى بها ومثالاً يأتم به الآخرون . وهو يرينا عن هذه الطريق كيف أن الشخص الفاني يستطيع ان يبلغ الى الله ، وهكذا نجد أن المبدأ الاسلامي لا يحظر على أحد ان يتصل بالله ولا بان يغترف من نبع الوحي الالهي ، وان كل انسان يستطيع ان يبلغ الى ذلك باتباعه الطريق السوي .

٨ - الحياة بعد الموت

الايمان بالحياة الاخرى على شكل من الاشكال أمر مألوف في جميع الديانات في العالم ، وهو الركن الأساسي الثالث في الاسلام . لم يتضح سر الحياة بعد الموت في دين كما وضح في الاسلام . لقد كانت فكرة النشأة الاولى شديدة الابهام حتى انتشار الديانة اليهودية ، ولكن ليس لان التوراة لم تذكر شيئاً كثيراً عنها بل لان هنالك شيعة يهودية كبيرة قد نفت فعلاً كل وجود من هذا النوع . وما ذلك الا لأن انواع الوحي السابقة لم تتعرض لهذه الناحية كثيراً .

ثم ان عقيدة التناسخ لم تكن الا لأن العقل الفطري قد اخطأ فهم الحقائق الروحية فتخيلها اموراً حسية . اما في الاسلام فقد بلغت هذه الحياة كمالها كما كان شأن كثير من اركان الدين . انه الاعتقاد بالحياة الاخرى في الاسلام معناه حساب النفس على ما عملته في هذه الحياة ، ولا شك في ان هذا الاعتقاد هو اساس مكين للسمو الخلقي في العالم ، ولكن اذا فهم على حقيقته . ولذلك نجد الأسلام يؤكد النقاط التالية خاصة .

٩ - الحياة بعد الموت

ليست الا تكملة للحياة الاولى

ان الثغرة التي تفصل هذه الحياة عن الحياة في الآخرة هو العقدة الكأداء في حل سر الحياة الثانية . ان الاسلام قد سد هذه الثغرة لما اعتبر الحياة الاخري استمرار للحياة الدنيا . وقد صرح القرآن بذلك حين قال : «أقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» (١٧ : ١٣) وقال في مكان ثان : «ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً» (١٧ : ٧٢) ثم قال في مكان آخر : «ياأيتها النفس المطمئنة إرجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي» (٨٩ : ٢٧-٣٠) ان اولى الآيات هذه الثلاث تصرح بان الحقائق الهامة التي سينكشف سرها يوم القيامة لن تكون شيئاً حادثاً ، ولكنها ستكون مظهراً لما خفي عن الباصرة الجسدية هنا . من اجل ذلك لن تكون الحياة بعد الموت جديدة ، ولكن تتمة للحياة الحاضرة ، وعاملة على كشف حقائقها الخفية . وأما الآيتان التاليتان فانهما تعلنان ان حياة جهنمية وحياة سماوية تبدآن في هذا العالم .

ان العمى في الآخرة هو جهنم ، ولكننا اذا اعتبرنا موضع الشاهد من الآية الكريمة وجدنا ان العمى في هذه الدنيا فقط هم العمي في الآخرة . وهكذا يبدو لنا بوضوح ان العمى الروحي في هذه الحياة هو جهنم الحقيقية وانه انما يستمر الى الحياة الثانية من هذه الحياة الاولى . وكذلك نعلم من طريق المقابلة ايضاً ان النفس التي وجدت السلام الكامل والاطمئنان الشامل (في هذه الدنيا) هي التي ستدخل الفردوس بعد الموت ، مما يدل على ان الفردوس في الحياة الاخرى ليس الا استمراراً لهذه الحيـاة . وهكذا يتضح لنا من القرآن الكريم ان الحياة المقبلة هي استمرار لهذه ، وان الموت ليس فاصلاً بين نوعين مختلفين من الحياة ، بل حلقة اتصال بينهما . انه باب يطل على الحقائق المستترة عنا في هذه الحياة الدنيا .

١٠ - الوجود الاخروى

انما هو صورة للوجود الروحي في الدنيا

جاء الاسلام وجاءت معه ابرز الحقائق المتعلقة بالحياة الاخرى . ان الناحية الجسمانية والناحية الروحانية ممتزجتان في التعاليم المسيحية ، فالبكاء والنحيب وصرير الاسنان والنار التي لايبرد لظاها مما يتعلق بعذاب الاشرار معبّر عنها كلها في اسلوب كالاسلوب الذي يوصف به ملكوت السموات والنعمة التي في السماء والحياة الابدية التي هي ثواب للاخيار المتقين . الا انه ليس ثمة ما يشير الى مصدر هذه ولا تلك .

اما القرآن الكريم فقد بين ان الوجود الاخروى مثال تام وصورة مجسمة لوجودنا الروحي في هذه الحياة . هنا ، في هذه الحياة ، نجد الاحوال الخيرة او الشريرة التي تنشأ عادة من اعمال الانسان ومعتقداته كامنة فيه ، ونجد سُمّها وترياقها يبتدآن تأثيرهما فيه خفية فقط ، ولكن تلك الاحوال ستغدو في الحياة الاخرى ظاهرة واضحة . ان الهيئة التي تتخذها اعمالنا في هذه الحياة الدنيا والعواقب التي نلقاها من جراء ذلك تظهر امام اعيننا في حياتنا

هذه ، اما في الحياة الاخرى فانها ستنكشف وتنبسط امامنا على غاية من الوضوح .

من اجل ذلك ان تكون الملذات والآلام في العالم الثاني محجوبة عن العيون كما هي حالها في هذا العالم ، مع العلم بانها روحية في حقيقتها . ولهذا السبب عينه تجد نعم الحياة الاخرى مذكورة مرة باسمائها المادية ، دلالة على تمثلها الواضح في عيون الناس ، بينما انت تراها مرة ثانية موصوفة بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر قط . ان وصف هذا النعيم الاخروي ليس سوى تفسير لما ورد في القرآن الكريم (٣٢ : ١٧) : « فلا تعلم نفسٌ ما أُخفِيَ لها من قُرَّةِ أعينٍ ، جزاءً بما كانوا يعملون » . ثم ان الآية الكريمة التالية — وهي تفهم عادة على غير وجهها الصحيح — لا يمكن ان تعني ان نعيم الآخرة الذي تصفه هو نفسه ما نشاهده في دنيانا [1] . انها تقول : « وبشِّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جناتٍ تجري من تحتهـا الانهار ، كلما رُزقوا منها من ثمرة

(١) ورد لفظ الجنة والجنات كثيراً في مقابلة النار . والجنة في اللغة البستان . والجنات جمعها . وليس المراد بهما مفهومهما اللغوي فقط وانما هما دار الخلود في النشأة الآخرة . فالجنة اعدت للابرار والمتقين ، والنار للفجار والفاسقين . فنؤمن بهما بالغيب ولا نبحث في حقيقة امرهما : ومما وصف الله تعالى به الجنات قوله : « تجري من تحتها الانهار » . والمناسبة ظاهرة ، فان البساتين حياتها بالانهار ، وهل سميت دار النعيم جنة وجنات على سبيل التشبيه ، وذكرت الانهار تشبيهاً لها ، ام سميت بذلك لانها مشتملة على الجنات —

رزقاً قالوا : هذا الذي رُزقنا من قبل وأُتوا به متشابهًا (٢ : ٢٥) فالاثمار التي يذكر الابرار في الجنة انهم ذاقوها في الدنيا لا يمكن ان تكون اثماراً للاشجار التي في هذه الدنيا . فالآية الكريمة اذن تخبرنا في الحقيقة ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يُعِدّون لانفسهم فردوساً من صنع ايديهم ، وما اثمار ذلك الفردوس الا اعمالهم الصالحة . انهم يتذوقون هنا في هذه الحياة اثمار هذا الفردوس ويتذوقونها روحياً فقط ، ولكنهم سوف يأكلون في العالم الثاني من هذه الاثمار نفسها في شكل اقرب الى الحس الجسماني . وهنا يحسن ان نستشهد بالآية التالية : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم وبأيمانهم » (٥٧ : ١٢) . هذه الآية تدل على نور الايمان هذا الذي يهتدي به الاخيار من الرجال والنساء ، والذي يُرى هنا في هذه الحياة بالعين الروحية فقط ،

— تسمية للكل باسم البعض قال الاستاذ محمد عبده — الله اعلم بمراده .

وقال السيد رشيد رضا : اننا نعلم ان الاكل في الدنيا لاجل حفظ البنية من الانحلال. ولا انحلال في دار الخلد ، فلا بد ان يكون الاكل والشرب هناك على ماورد لحكمة اخرى ، وهو تحصيل لذة لا نعرفها لانها من احوال عالم الغيب ، وانما نؤمن بما ورد ونفوض امر حقيقته وحكمته الى الله تعالى .

ومما ورد انه لذة اعلى من لذات الدنيا ما ورد في حديث الصحيحين المرفوع عن الله عز وجل : « اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وهو تفسير قوله تعالى : « فلا تعلم نفسٌ ما اخفي لهم من قرة اعين ، جزاء بما كانوا يعملون » .

سوف يرى واضحاً جلياً يسعى بين ايدي المؤمنين يوم القيامة .

وكما هي الحال في نعيم الجنة فان العقاب في جهنم مثال للعذاب الروحي في الدنيا . لقد وصفت جهنم بانها مكان لا يموت فيها الانسان ولا يحيا (راجع القرآن الكريم ٢٠ : ٧٤) ويجب ان نذكر بهذه المناسبة ان القرآن الكريم يصف المذنبين والاشرار بانهم اموات غير احياء ، بينما هو يسمي الاخيار احياء عند ربهم يرزقون . وسر ذلك ان اسباب الحياة عند اولئك الذين لا يعرفون الله حق معرفته هي انهم يأكلون ويشربون ويتمتعون كما تتمتع الانعام ، ثم ان هذه الاسباب تنقطع بهم حينما يموتون . من اجل ذلك لن يكون لهم نصيب من ذلك الغذاء الروحي ، وهكذا سيكونون محرومين من الحياة الحقيقية ولكنهم سيبعثون يوم القيامة ليذوقوا عاقبة امرهم على ما صنعوا من الشر .

١١ - الايمان بالملائكة ومعنى ذلك

لقد اوضحت الى الان اركان الايمان الثلاثة الاساسية في الاسلام ، ولكن يمكن ان ازيد على ذلك ايضاً ان الايمان بما لا تدركه الابصار يشمل كائنات نسميها ملائكة [1] . ومع ان

---

(١) الملائكة والجن :

قال الاستاذ الامام محمد عبده : ليس عندنا دليل على ان بين الملائكة والجن فصلاً يميز احدهما عن الآخر ، وانما هو اختلاف اوصاف عندما تختلف اوصاف . فالظاهر ان الجن صنف من الملائكة ، وقد اطلق لفظ الجنة على الملائكة ، جمهور المفسرين في قوله تعالى « وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً » وعلى الشياطين في آخر سورة الناس . وعلى كل فجميع هذه المسميات بهذه الاسماء من عالم الغيب لا نعلم حقائقها .

وقال في موضع آخر : ان الملائكة خلق غيبي لا نعرف حقيقته . وانما نؤمن به باخبار الله تعالى الذي نقف عنده ولا نزيد عليه . والقرآن ناطق بان الملائكة اصناف لكل صنف وظيفة وعمل .

ونقول الآن ان الهام الخير والوسوسة بالشر مما جاء في لسان صاحب الوحي صلى الله عليه وسلم وقد اسند الى هذه العوالم الغيبية ، وخواطر الخير التي تسمى الهاماً ، وخواطر الشر التي تسمى وسوسة ، كل منهما محله الروح . فالملائكة والشياطين اذاً ارواح تتصل بأرواح الناس فلا يصح ان تمثل الملائكة بالتماثيل الجسمانية المعروفة لنا لان هذه لو اتصلت بأرواحنا فانما تتصل بها من طرق اجسامنا ونحن لا نحس بشيء يتصل بأبداننا لا عند الوسوسة ولا عند الشعور بداعي الخير من النفس . فاذاً هي من عالم غير عالم الابدان قطعاً .

قال السيد رشيد رضا تعقيباً على قول الاستاذ الامام : ان اسناد الوسوسة الى—

هذا الاعتقاد بالملائكة عام في اديان كثيرة فانه اقل اهمية وذيوعاً من الاركان الثلاثة الآنفة الذكر ، وهكذا لن تكون هذه الملاحظات القليلة التي تبين حقيقة هذا الاعتقاد في غير محلها هنا . اننا نجد في العالم المادي قانوناً قائماً ، هو اننا نحتاج الى عوامل خارجية (للادراك) فوق ما في انفسنا من القوى الداخلية . لقد أُعطينا عيوناً لنبصر بها ، ونحن نبصر بها فعلاً ، ولكن هذه الابصار لايتأتى لنا الا بواسطة الضوء الذي هو خارج عنا . وكذلك الاذن تتلقى الاصوات ، ولكنها لو ارادت ان تستغني عن وساطة الجو (الهواء) لما استطاعت ذلك . فالانسان محتاج اذن الى عوامل خارجة عنه فوق ما فيه نفسه من القوى الذاتية ، وكذلك الحال في العالم الروحي ، فانها مشابهة لما نعرفه في العالم المادي .

وكما ان قوانا الطبيعية لاتستطيع وحدها ان تبلغنا غاية ما في العالم المادي الا اذا استندت الى عوامل خارجية لقوى اخرى ، فكذلك قوانا الروحية لا تستطيع وحدها ان تحملنا على ان نفعل

— الشياطين مدون بالكتاب والسنة . واما استاد الهام الحق والخير الى الملائكة فيؤخذ من خطاب الملائكة لمريم عليها السلام ، ومن حديث الترمذي والنسائي وابن حيان وهو ان للشيطان لمة بين آدم ، وللملك لمة ، فاما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق ، واما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق .

خيراً وشراً ، بل هي ايضاً بحاجة ماسة هنا الى وسائط لها وجود مستقل عن قوانا الروحية تستطيع ان تَحْدُوَنا الى فعل الخير او فعل الشر . وبكلمة اخرى ، هنالك نزعتان مركوزتان في فطرة الانسان : نزعة تجذب به الى الخير او تسمو به الى عوالم الفضيلة ، ونزعة تجتذبه الى الشر او الى ان ينحني الى نوع من الحياة الحيوانية البهيميَّة . ولكنَّ هاتين النزعتين لا يمكن ان تعملا الا اذا اقترنتا بعوامل خارجية ، كما هي الحال تماماً في العالم المادي . ان العامل الخارجي الذي يمكن النزعة الطيبة من عمل الخير يُدعى « مَلَكاً » بينما ذلك الذي يساعد النزعة الرديئة على عمل الشر يُسمى « شيطاناً » . فاذا نحن اطعنا نزعة الخير فينا كنا مهتدين بهدي الروح القدس ، واذا نحن اصغينا الى وسوسة نزعة الشر كنا من اخوان الشيطان . فمعنى الايمان بالملائكة اذن انه يجب علينا ان نلبي داعي الخير أو نزعة الخير المركوزة فينا .

١٢ - معنى الايمان

ان الملاحظات الآنفة لا تشرح معنى الايمان بالملائكة في نظر المسلم فقط ، بل انها تشرح المعنى المتضمن في كلمة « ايمان » ايضاً . ان الايمان في نظر الاسلام ليس الاقتناع بحقيقة قضية مفروضة فقط ، ولكنه في جوهره « القبول بقضية على انها قاعدة للعمل » . وكما اتفق لنا فيما شرحناه آنفاً ، ان افتراض وجود الشياطين صحيح كافتراض وجود الملائكة . ولكن بينما نجد الايمان بالملائكة مذكوراً مرة بعد اخرى على انه ركن من اركان الايمان في الاسلام ، فاننا لسنا مسؤولين ابداً عن الايمان بالشياطين ان كلا الحقيقتين صحيح ، والقرآن الكريم نفسه يذكر ضلالات الشياطين ووسوستهم في مناسبات شتى ، ولكن بينما نراه يتطلب الايمان بالملائكة لا نراه يتطلب الايمان بالشياطين . ولو كان الايمان بالملائكة مرادفاً فقط للاعتقاد بوجودهم لكان الايمان بالشياطين ضرورة شبيهة بذلك ، ولكنه ليس كذلك ، والسبب في ذلك انه بينما نجد الانسان مسؤولا عن الاستجابة لدعوة داعي الخير ، لانراه مسؤولاً عن الاستجابة لدعوة الداعي الى الشر . من اجل ذلك كله بينما نحن نتخذ الايمان بالملائكة اساساً لعمل الخير ثم

لانتخذ الايمان بالشياطين اساساً لكي نعمل الشر ، فأننا نؤمن بأولئك ولا نؤمن بهؤلاء . والقرآن الكريم ، من ناحية ثانية ، يأمرنا بان نفكر بالشياطين : « فمن يكفرْ بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها » (٢ : ٢٥٧) . وهكذا يبدو في ما عددناه آنفاً مما ورد في القرآن الكريم ، ان هذه في الحقيقة مبادئ ، يقوم كل واحد منها مقام اساس للاعمال الصالحة والاسلام لا يعترف بانواع اخرى من الايمان (لا تصلح ان تكون اسساً لمثل هذه الاعمال) .

---

١٣ ـ مبادئ اعمال التقوى

ثم نأتي الى الناحية العملية من الايمان في الاسلام . لقد سبق لي ان قلت ان العمل جزء جوهري في الدين [1] كالايمان سواء بسواء . وهكذا يقف الاسلام موقفاً وسطاً بين الاديان التي يتجاهل الناحية العملية مرة واحدة وبين تلك التي تقيد اتباعها

(١) قرن الحق جل وعلا الايمان بالعمل في نحو ثلاثمائة آية من آيات القرآن الكريم . وليس بعد هذا مذهب في الحض على وجوب العمل وعدم الاكتفاء من الدين او من العلم بالكلام . وهذا داء قد اصاب كثرة المتدينين حينما خيل اليهم ان الله قد سخر لهم قوى العالم كله لاشيء سوى انهم مؤمنون فقط ، ثم هم ينسون ان هذا امتياز لم يمنح للرسل انفسهم .

بتفاصيل الطقوس والعبادات . ذلك لانه يلحظ التطور الضروري في قوى الانسان فيكتفي بسبل الارشاد الصامتة ثم يترك مجالاً واسعاً للفرد ليتصرف بما تقضي به حكمته .

واذا فقد دين ما ميزته العملية فانه خليق أن ينقلب مذهباً مثالياً خالصاً ، ثم يخسر تأثيره في حياة الانسان العملية . ان تعاليم الاسلام التي تتضمن واجبات الانسان نحو الله وواجباته نحو اخيه الانسان ، انما هي قائمة على تلك المعرفة الحق بالطبيعة البشرية ، تلك المعرفة التي لا يمكن ان يبلغ اليها الا باري، تلك الطبيعة . هذه التعاليم تتناول مراتب التطور في حياة الانسان ، وهي في ذلك موافقة لحاجات الشعوب المختلفة الى حد بالغ . اننا نجد في القرآن الكريم سبل ارشاد للعامة كما للفلاسفة ، وللجماعات في دركات الحضارة الاولى كما نجد ايضاً مثلها لشعوب العالم التي بلغت أعلى درجات الحضارة . ان المبدأ العملي مفتاح تلك التعاليم ، وهكذا كان هذا الشمول الذي يميز اركان الايمان في الاسلام موجوداً ايضاً في اوامره العملية ونواهيه مما يجعلها موافقة فعلاً لحاجات جميع العصور وجميع الامم .

١٤ - الصلاة

ان الآيات الكريمة التي استشهدت بها آنفاً هي ، كما قلت من قبل ، نواة التعاليم في الاسلام . ثم اننا نرى ان المبدأين الاساسيين اللذين يتناولان العمل واللذين ذكرا في تلك الآيات الكريمة انما يمثلان (فيما لو تناولناهما باوسع معانيهما) أداء الانسان لواجباته نحو الله ونحو اخيه الانسان . ان الصلاة[1] لله هي جوهر قيام الانسان بواجبه نحو الله . فالصلاة فيض يغمر القلب وتوجه خاشع لله وتعبير مقرون بالهيبة عن أخلص رغبات النفس بين يدي خالقها . وهكذا كانت فكرة الصلاة في الاسلام ، ككل فكرة دينية اخرى فيه ، قد بلغت ذروة تطورها ،

(١) الصلاة اتصال بقيوم الوجود ، واستمداد منه ما يعينه من القوى في تذليل العقبات . وهي افعال مبتدأة بتكبير الله سبحانه ومختتمة بالتسليم على عباده وفي قيامها وركوعها وسجودها وما يتلى فيها من آي القرآن المجيد فوائد جمة :

« اولها » طاعة الله وشكره على نعمه .

« ثانيها » النظافة القلبية والجسدية .

« ثالثها » التعود على حفظ النظام والمواعيد .

« رابعها » تقوية الاجسام بحركاتها الرياضية .

« خامسها » التمرين على الحلم والصبر والطاعة حينما تكون الصلاة مع الجماعة .

فالصلوة كما نص القرآن الكريم هي الوسيلة الحقيقية الى تطهير القلب، ذلك التطهير الذي هو السبيل الوحيدة الى الاتصال بالله. وقد قال القرآن الكريم : « أتل ما اوحي اليك من الكتاب واقم الصلوة ، ان الصلوة تنهي عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله اكبر ...» (٢٩ : ٤٥) .

فالاسلام يشترط اذن ان تكون الصلوة سبيلاً الى السمو الروحي للانسان . ان الصلوة التي تنحط فتصبح طقوساً خالصة ومراسم جوفاء بالية تؤدى رئاء الناس ليست الصلوة التي امر بها الاسلام . ان القرآن الكريم قد انكر مثل هذه الصلوة على الناس فقال : « ويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ...» (١٠٧ : ٤ ـ ٦)[1]

---

(١) ان الذي لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر كلما ازداد صلاة كلما ازداد بعداً عن الله .

١٥ ـ الصيام

وكذلك فرض القرآن الكريم الصيام على انه وسيلة الى تزكية النفس . والصيام [1] على كل حال لا يعني الامتناع عن

(١) هو الامساك عن الاكل والشرب والجماع من طلوع الفجر الصادق الى الغروب وقد فرض رمضان على من يستطيع صيامه بلا حرج ، وابيح افطاره بشرط القضاء للمريض ، والمسافر والمرضع والحامل ، والشيخ والشيخة بشرط ان يطعم مسكيناً عن كل يوم يفطر : « يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، اياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً او على سفر فعدة من ايام اخر ، وعلى الذين يطيقونه طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وان تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون ».

وللصوم فوائد اهمها :

١ — ثواب الله سبحانه .

٢ — تهذيب النفس وتصفيتها وتعويدها على الفضائل اذ الصيام ايضاً الامتناع عن جميع الموبقات .

٣ — اشعار الغني بحالة الفقير ، وما يعاني من فاقة ومسغبة وحرمان .

٤ — تقوية الارادة وتمرينها على مضاء العزيمة والصبر والجلد .

قال كارليل في هذا الخصوص :

واي دليل اشهر ببراءة الاسلام من الميل الى الملاذ من شهر رمضان الذي تلجم فيه الشهوات وتزجر النفس عن غاياتها وتقرع مآربها ؟ وهذا هو منتهى العقل والحزم فان مباشرة الملذات ليس بالمنكر وانما المنكر ان تذل النفس لجبار الشهوات وتنقاد لحادي الاوطار والرغبات .

الطعام فقط ، ولكن عن كل نوع من انواع الشر ايضاً . والامتناع عن الطعام انما هو في الحقيقة خطوة تؤدي بالانسان الى ان يتحقق انه اذا كان بامكانه ان يمتنع طاعةً لله عما هو لولا الصيام مباح ، فكم هو اخلق به ان يمتنع عن الجري في سبيل الشرور التي حرمها الله .

ثم ان السمو الروحي هو الغاية المقصودة من الصيام ، حتى ذكر الله ذلك واضحاً في كتابه العزيز ، اذ قال : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٢:١٨٣)

١٦ - الحج

ان الحج الى بيت الله الحرام في مكة يمثل المقام الاخير في السياحة الروحية [1] . انه يمثل المقام الذي تنقطع به صلات الانسان بالعالم المادي انقطاعاً تاماً ، اذ يُسْلِم نفسه الى الارادة

(١) هو عبارة عن الاحرام والوقوف والطواف حول الكعبة في مواقيت معينة . ففريضة الطواف — اي السعي حول الكعبة في مكة من اهم الاركان الاساسية الثلاثة في الحج الاسلامي — والمعنى من هذا واضح . فان نحن درنا حول شيء ما ، فاننا نقرر ان هذا الشيء ، انما هو النقطة المركزية لعملنا . ان الكعبة التي يولي كل مسلم وجهه شطرها في صلاته ترمز الى وحدانية الله ، وان الطواف حولها يرمز الى جهود الحياة الانسانية . وهكذا نرى ان الطواف لايعني ان افكارنا الخاشعة وحدها فقط ، بل حياتنا العملية واعمالنا وجهودنا ايضاً ، كل هذه يجب ان تتمشى — في نفس — فكرة الله ووحدانيته على انها مركز لها ، واما تسبيع الطواف فهو منتهى المبالغة في الاعداد القليلة .

وان احترام الحجر الاسود بتقبيله او لمسه اشارة الى اثبات الطاعة لله ومعاهدته على تنفيذ ما امر الله به وجعل الحجر كنائب عن يده يتوثق به في المعاهدة على طاعته كما يتوثق الانسان من معاهدة شخص بوضع يده في يده . ولذلك أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « الحجر الاسود يمين الله في الارض »

واما القربان الذي يذبحه الحاج ففيه حكمتان :

الاولى : تذكر حال الذبيح ليقر في النفس ان من يطيع ربه ينقذه من الشدائد والمهالك.

الثانيه : التوسعة على الحاج والفقراء والمساكين

ولكل من باقي مناسك الحج اسرار ورموز اضرب عنها صفحاً للايجاز .

والخلاصة فان الحج مؤتمر اسلامي عام يوالي فيه المسلمون اجتماعاتهم ومذاكراتهم في مكة . وهو من اعظم المؤتمرات السياسية يعتز به سلطان الامة الاسلامية . وتوحد كلمتها على اختلاف اجناسها ولغاتها . ولكن وياللاسف فاتت الفائدة وضاعت الثمرة وتاهينا بالشجرة

الارادة الالهية ويضحي مصلحته في سبيل الله . ان المحب المتيم يجد اعظم اطمئنانه في ان يضحي قلبه ونفسه في سبيل من يحب . وما الطواف حول بيت الله الحرام الا وسيلة للتعبير الظاهر عن ذلك الشعور نفسه . ان الحاج يدل بهذا العمل الخارجي من الطواف حول الكعبة على ان نار الحب الالهي قد انقدحت في قلبه ، وعلى انه مثل ذلك المحب المتيم الذي يُطيف ببيت محبوبته . انه يدل في الحقيقة على انه قد تخلى عن ارادته واسلمها تامة الى مولاه ، وعلى انه قد ضحى جميع مصالحه في سبيل الله .

وهكذا نرى ان جميع هذه التعاليم الاسلامية قد قصد بها ان يسمو الانسان في الحياة سمواً روحياً . ان الاسلام لم يفرض امراً يمكن ان يقال فيه انه عبادة لله لا معنى لها ، بل ان الغاية والهدف اللذين ترمي اليهما تلك التعاليم انما هما تزكية القلب حتى يستطيع الانسان ، وقد تزكى قلبه وتطهر ، ان يتمتع بالاتصال بالواحد الاحد الذي هو الينبوع الاسمى لكل نقاء وصفاء .

١٧ - واجبات الانسان نحو اخيه الانسان

اما النوع الثاني من التعاليم الاسلامية فانه يتعلق بواجبات الانسان نحو اخيه الانسان (١) . ولكن يجب ان لا يَغْرُبَ عن

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الساعي على الارملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله » . وقال ايضاً : « انا وكافل اليتيم في الجنة هكذا — واشار باصبعيه السبابة والوسطى » . وقال الله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً » . وقال جل شأنه : « يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود » . وقال في سورة الاسراء : « واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤلا » . وقال في سورة الانعام : « واذا حكمتم فاعدلوا وبعهد الله اوفوا » . وقال تعالى في سورة النحل : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون »

وقال صلى الله عليه وسلم : « من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله ».

قال الله تعالى في سورة النساء : « ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » .

قال تعالى : « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها اذىً ، والله غني حليم » .

وقال تعالى اسمه : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون » .

« ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .

وقال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى ، واتقوا الله ، ان الله خبير بما تعملون ».

بالنا ان كلا النوعين متلازمان تلازماً وثيقاً . ان السمو الروحي في الانسان هو الحجة الكبرى في القرآن الكريم والغاية الاساسية التي رفعها الاسلام نصب اعيننا دائماً ، وجميع التعاليم الاسلامية قد قُصد بها ان تنهض بالانسانية درجةً درجةً الى اسمى مستوى خلقي يستطيع الانسان ان يبلغ اليه . ان قول الرسول الكريم : « من خان حق اخيه فليس بمؤمن بوحدانية الله »[1] . قول جدير بان يكتب بحروف من ذهب .

(١) لم اقع على حديث يشبه لفظ هذا القول ، ولعل المقصود هنا الحديث المشهور : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » .

١٨ - التآخي في الاسلام

لقد أبطل الاسلام ، اول ما ابطل ، الفوارق التي تحمل على التباغض [١] . ان قوله تعالى : « ان اكرمكم عند الله أتقاكم » كان الضربة القاضية لكل ترفع او اذلال مبني على فوارق اجتماعية قبلية ثابتة . نظر القرآن الكريم الى البشر على انهم اسرة واحدة ، ولذلك قال : « يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (٤٩ : ١٣) وهكذا وضع الاسلام أساس تآخٍ شامل يتساوى فيه جميع الناس من ذكر وانثى مهما كانت القبائل التي خرجوا منها او الامم التي ينتمون اليها او الطبقات [٢] التي يتميزون فيها ، ومهما كانت صناعاتهم او مراتبهم في سلم المجتمع ، وسواء أكانوا اغنياء ام

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان خياركم احاسنكم اخلاقاً » . « ان احبكم اليّ واقربكم مني مجالس يوم القيامة احاسنكم اخلاقاً الموطؤن اكنافاً الذين يألفون ويؤلفون » .

(٢) قال تعالى : انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون . يا ايها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيراً منهن ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالإلقاب ـ بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون .

فقراء . كل هؤلاء متساوون في نظر الاسلام في الحقوق لا يستطيع احدهم ان يتخطى حقوق اخيه الانسان .

في هذا التآخي يجب على كل واحد أن يعامل كل واحد آخر كأنه واياه عضوان في اسرة واحدة . حتى العبد يجب ان يلبس من لباس سيده ويغتذي بغذاء سيده ولا يجوز ان ينظر اليه على انه ادنى درجة من سائر الناس او احط مقاماً . وكذلك النساء فقد انصفهم القرآن الكريم لما اثبت لهن حقوقاً وطالبهن بمثلها ، فقال : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » (٢ : ٢٢٨) . من اجل ذلك لايجوز ان يحرم احد من حق من حقوقه بالاضافة الى طبقته او مهنته او جنسه .

ان هذا التآخي العظيم لم يبق تآخياً نظرياً بل وُضع موضع العمل به ، فاصبح قوة حية لان الرسول الكريم وخلفاءه واصحابه كانوا في ذلك قدوة لسائر المؤمنين . ولقد وُضعت قاعدة ثابتة لهذا التآخي العظيم حينما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » .

١٩ - طاعة اولي الامر

وبينما يقرر الاسلام المساواة في الحقوق نراه من جهة ثانية يعلم احترام السلطة الى اقصى درجة . ان المنزل هو المنبت الصحيح الذي تبتديء منه التربية الخلقية ، من اجل ذلك يؤكد القرآن الكريم طاعة الوالدين بقوله : « وقضى ربك الاّ تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً ، إمّا يَبْلُغَنَّ عندك الكِبَرَ احدُهما او كلاهما فلا تقلْ لهما أُفٍّ ولا تنهرْهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناحَ الذُلِّ من الرحمة ، وقل رب ارحمْهما كما ربياني صغيرا » (٥٩ : ٤) . على ان القرآن الكريم قد حث في موضع آخر على معصيتهما اذا هما ارادا ان يجبرا اولادهما على عبادة غير الله ، قال تعالى : « وان جاهداك على ان تُشْرِكَ بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما » . ان هذا البر العظيم بالوالدين هو الاساس الذي نبت عليه الخلق العالي في احترام كل سلطة .

وهكذا يقول القرآن الكريم ايضاً بوضوح : « واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » (٤ : ٥٩) . اما « اولو الامر » فليسوا فقط الحكام الذين هم في دَسْت الحكم في بلدٍ ما ،

ولكنهم جميع الذين عهد اليهم بشيء من السلطة ، حتى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كلكم راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته» . ولقد ورد في الحديث ايضاً وجوب طاعة الرقيق الاسود لو وليَ الأمر [1] . الا ان الطاعة لا تجوز اذا كانت تحث على معصية الله [2] . وكما ان الوالدين لا يجوز ان يطاعا اذا دعوا الى عبادة غير الله الواحـد ، فان الحاكم ايضاً يجب ألاّ يطاع اذا كانت طاعته تخالف ما دعا اليه القرآن الكريم والحديث الشريف لقد وضع لنا الخليفة الاول ابو بكر الصـديق يوم تولى الخلافة قاعدة في الحكم يجب ان تكتب باحرف من ذهب ، قال : ان استقمت فاتبعوني وان زغت فسددوني واطيعوني ما اخاف الله ورسوله فيكم [3] . ومن اقوال الرسول : خير اعمالكم كلمة حق الى سلطان جائر [4] .

---

(١) يشير المؤلف الى حديث يقول : اطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي له زبيبة ، وهو حديث من باب التمثيل فقط ان صح انه صحيح ، ذلك لان هذا الحديث يستشهد به في باب « الخلافة » والعبد لايجوز ان يتولى الخلافة .

(٢) يشير المؤلف الى حديث يقول : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

(٣) من خطبة لابي بكر قريبة اللفظ من هذا .

(٤) لم اقع على نص الحديث ولكن هذا هو معناه

٢٠ - الاحسان

ان المساواة في الحقوق والاحترام السامي للسلطة هي الميدآن الاساسيان للمجتمع الاسلامي . وانا لا استطيع ان أُفيض في القول هنا على تفاصيل هذا الهيكل العظيم الذي شُيّدت دعائمه على هذا الاساس ، ولكن يجب علي على كل حال ان اشير الى ميزة اخرى من ميزات التآخي في الاسلام .

ان كل دين في العالم قد حض على الاحسان وعلى إيتاء انواع الصدقات، ولكن الاسلام وحده هو الذي جعل الاحسان فرضاً وشرطاً على الذين اتبعوه . وهنا نجد تآخياً لايستطيع الغني ان يتمتع به الا اذا تخلى بارادته عن قسم مما يملكه في سبيل الفقراء من ابناء دينه . ولاريب ابداً في ان هذا الغني لايواجه هنا صعوبة لا قبل له بها مثل ذلك الامتحان الخيالي الذي يتطلب دخول الجمل في سَمّ الخياط [1] ، ولكن يفرض عليه امتحاناً عملياً يمكنه ان يقف على مستوى واحد مع اخيه الفقير ، ثم يطلب منه ان

(١) الجمل هنا : حبل السفينة (القليظ) . سم الخياط : ثقب الابرة .

يدفع ضريبة — ضريبة تجبى من الغني في سبيل الفقير — ان كل فرد يملك نصاباً معيناً يجبر على ان يفرد قسماً معيناً منه [1]، هذا القسم تجبيه الدولة المسلمة او الامام لينفق في الوجوه التي عددتها الآية الكريمة : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ... » (٩ : ٦٠) . ان التركيب الاضافي في « سبيل الله » يشتمل على كل اوجه الاحسان .

---

(١) الزكاة هي مظهر شكر الله على نعمه او الصلة العظيمة بين الناس وهي عنوان الايمان . فان الانسان يكتسب المال من الناس بخدمته وعمله معهم . فهو لم يكن غنياً الا بهم ومنهم . فاذا عجز بعضهم عن الكسب فيجب على الآخرين الاخذ بيده وان يكونوا عوناً له حفظاً للمجموع الذي ترتبط مصالح بعضه بالبعض الآخر . ولهذا جعل الله بذل المال وانفاقه في سبيل الخير علامة من علامات الايمان . وقد قضت سنة القرآن بقرن الزكاة بالصلاة ، لان الصلاة لاصلاح نفوس الافراد ، والزكاة لاصلاح شؤون الجماعات . ثم ان فيها من معنى العبادة ما في الصلاة . فان المال شقيق الروح فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله تعالى كان بذله مزيداً في ايمانه فهي اصلاح روحي ايضاً .

والزكاة قدر معلوم من المال يؤخذ من الاغنياء للفقراء تخفيفاً لويلاتهم واتقاء لما عسى ان يلجئهم البؤس الى اقترافه من السرقة والنصب والضغينة على الاغنياء ، قال الله تعالى : « وفي اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . وقال : « واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ». وقال : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم » .

وعليه فان الاسلام اشتراكية معتدلة . وتمتاز الزكاة فيه انها جزء محدود لا يؤثر على الثروة ولا ينشأ عنها سلب الغني ملكه وعقاره ولا تثبيط العزائم عن الكد والعمل .

وبجانب الزكاة التي جعلها القرآن الكريم فرضاً على كل مسلم والتي اوجبها كما اوجب الصلاة نجد القرآن نفسه ايضاً قد حض على الاحسان في معظم سوره . ان تحرير الارقاء واطعام الفقراء قد أشير اليهما في القرآن الكريم مرة بعد مرة على انهما اعمال من اسمى انواع الفضيلة ، قال الله تعالى : « فلا اُقتَحَمَ العقبة ، وما ادراك ما العَقَبَة ، فك رَقَبَة ، او اطعام في يوم ذي مَسغبة ، يتيماً ذا مَقْربة او مسكيناً ذا مَتْربة » (٩٠ : ١١ وما بعدها) .

٢١ - نطاق التعاليم الخلقية

لم يُوحَ القرآن الكريم لأمة واحدة او لعصر واحد ، من اجل ذلك كان نطاق تعاليمه الخلقية متسعاً اتساع الانسانية نفسها. انه كتاب فيه هدى لجميع الناس في جميع احوال حياتهم ، فيه هدى للمتوحش [1] الجاهل مثلما فيه هدى للفيلسوف العاقل ، ولرجل الاعمال مثلما للناسك المتوحد وللغني والفقير على السواء. من اجل ذلك ، بينما تجده يضع قواعد مختلفة للحياة تراه يدعو كل فرد ليتبع خير تلك القواعد مما يوافق احواله التي يعيش هو فيها. فاذا كان في الاسلام وصايا قُصِدَ بها ان ترفع من شأن اولئك الذين يعيشون في ادنى دركات الحضارة وتعلمهم بعض آداب السلوك الفطرية ، فان فيه ايضاً قواعد قصد بها اولئك الذين اصبحوا على ذرى الرقي الروحي والخلقي.

(١) المتوحش هنا : هو الذي يعيش بعيداً عن المدن.

ان التعاليم الخلقية (١) القائمة على مُثل سامية ضرورية بلا ريب لرقي الانسان ، ولكن هذا النوع من التعاليم لا يستفيد منه الا اولئك الذين يستطيعون ان يتبينوا قيمة هذه المُثل . على ان هذه الطبقة لا تضم الجماهير الغفيرة من امة ما ولا من مجتمع ما مهما كان مستوى الحضارة في تلك الامة او في ذلك المجتمع سامياً . وهكذا كان في القرآن الكريم هدى للبشر في جميع اطوارهم التي يجب ان يتقلبوا فيها في اثناء تقدمهم من الاحوال التي

(١) لقد حث الاسلام على مكارم الاخلاق :

قال الله تعالى لنبيه : « وانك لعلى خلق عظيم » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » . وقال ايضاً : « بعثت بالحنفية السمحاء » . وقال : « ان الله يحب الرفق في الامر كله » . وجاء في القرآن الكريم : « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها اذى والله غني حليم » .

قال الله مخاطباً نبيه الكريم : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر » .

وقال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا اقرب للتقوى » .

وقال جل اسمه : « فاوفوا بالكيل والميزان ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين » .

وقال جل شأنه : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » .

وقال سبحانه : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده . واوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا . واقصد في مشيك واغضض من صوتك .

تحيط بالمتوحش الفطري الى تلك التي يعيش فيها الانسان في سمو روحي عظيم . هذه القواعد تتناول جميع اطراف الجهود الانسانية وتتطلب الرقي في جميع قوى الانسان .

ان الاسلام يتطلب ابراز جميع الصفات التي ذكرت في الانسان على شريطة واحدة ، هي ان تبرز تلك الصفات في وقتها المناسب . انه يتطلب من المسلم ان يظهر الوداعة كما يتطلب منه ان يبدى الشجاعة ، ولكن على ان يضع كل شيء منهما موضعه . انه يعلمنا أن نأخذ بالعفو ، ولكن اذا كانت الاهانة التي توجه الينا من نوع يقتضي العقاب فيجب ان نعاقب عليها ولكن بقدر يتفق مع درجة تلك الاهانة . ولقد امرنا ان نعفو اذا كان هذا العفو يفضي الى اصلاح . ثم هو يعلم الانسان ان يتمسك بمكارم الاخلاق في اعظم الاحوال حراجة ، وأن يكون اميناً ولو قادت امانته الى تعقد الامور ، ثم ان يقول الحق ولو على نفسه أو على اقرب الناس اليه ، وان يبدي عطفاً على مستحقه ، ولو ادى ذلك الى ان يضحي بمصلحته الخاصة . وكذلك أوجب علينا الاسلام ان نصبر في اشد ايام المحن ، وان نحسن الى من اساء الينا . ثم ان الاسلام يعلمنا ان نسلك سبيلاً وسطاً ، ويحث الناس على ان يعملوا بالصفات النبيلة التي اودعها الله في طباعهم في كل عمل يعملونه . وكذلك يريدنا الاسلام على الا ننسى نصيبنا من الدنيا .

والاسلام يتطلب من الناس ان يكونوا أعفة ولكن على الا يخصوا انفسهم ، وهو يتطلب منهم ان يعبدوا الله ولكن من غير ان يصبحوا رهباناً . وهو يريد منهم ان ينفقوا من اموالهم ولكن من غير ان يقعد أحدهم ملوماً محسوراً . انه يعلمهم ان يخضعوا ولكن من غير ان يضيعوا حرمة انفسهم . انه يوجب عليهم ان يعفوا ولكن على الا يكون ذلك سبباً الى تشجيع المجرمين . انه يأذن لهم بالتمتع بجميع حقوقهم ولكن من غير ان يتخطوا حقوق الآخرين . وهو اخيراً يطلب منهم ان يعملوا على نشر دينهم ولكن من غير ان يسيئوا الى غيرهم .

بطل الريف
الأمير عبد الكريم

وصف رائع لبطل عربي من كبار الابطال حارب في
سبيل الحريات والاستقلال حتى سقط اسيراً في المعركة الفاصلة

نشرته — المكتبة الاهلية — في بيروت

سلاسل « الاهلية » ●

البعث

او

فجر ينبثق عن اندلس في الشرق

للاستاذ طه المدور

....

من الاحتلال
الى الاستقلال

او

لبنان في ربع قرن

للدكتور جورج حنا

....

نشرتها — المكتبة الاهلية — في بيروت

● السلسلة التاريخية